تـاريخ الكتـابة وأثـر الإسلام

الأسم/ أسامة ناصر الراجح

تاريخ الكتابة :

لم يكتشف الإنسان القديم ذاته ككائن عاقل ومفكر ومتبصر بما حوله من كائنات حية مماثلة ومختلفة ومتمايزة بالخلق والخلقية إلا بعد مسيرة طويلة من الأزمنة سجلت يومياتها تلك المكتشفات الأثرية التي جهد العلماء والباحثون في التاريخ القديم والحديث والمعاصر، ومن كل الأقوام والجنسيات واللغات في تشكيل « بانوراما » إنسانية مفتوحة على التفاعل الحضاري وحوارات الأبصار والعقول غير منغلقة ومتزمتة ومنحازة لذاك البلد أو تلك المرحلة حيث شكلت تلك الدراسات والبحوث والكتب ذات الصلة مراجع علمية ومصادر معرفية تستند إليها كافة العلوم المعاصرة في ميادين الخط عموماً والعربي على وجه الخصوص، إذ يمكن القول بأن الكتابة هي فعل اجتماعي مخصوص بالإنسان وحده بمعزل عن بقية الكائنات الحية ونتاج تراكمي للخبرة والعلاقات التواصلية الحركية ما بين أفراد هذا المجتمع أو ذاك. يؤرخ تبعاً لمستويات وعيه وأنماط أساليبه الحياتية اليومية وما يتخللها من متغيرات ومؤثرات خارجية محكومة بعامل التكيف مع الطبيعة كنوع من الذكاء الإنساني الفطري. لا يمكن فصلها عن مكتشفات العلم التطبيقي والأثري (الأركيولوجي) خصوصاً في مسارب اكتشاف الإنسان لذاته وزمانه ومتغيراته متصلة بالبحث الديني من كونه مفتاح الأسرار وسلطة مفروضة ومسكونة داخل فطرة الإنسان بكل أجناسه ومراحل تطوره ووعيه الاجتماعي. وبالتالي لابد من الإشارة بأن ثمة حلقات مفقودة من تاريخ المجتمع الإنساني لم يستطيع الدين والعلم (كل على حدة) حسم هذه المسألة الإشكالية في إمكانية اكتشافها، وينبغي للمشتغلين في مسالك العلم والدين من التفاعل الإيجابي في إيجاد علاقات بحث منهجية تجيب عن مدارات الأسئلة المطروحة في المجهول، لما يتمتع به الكائن البشري من مكونات حسية وعقلية وأدوات معرفية وفضول وهم تساعده في مزيد من اكتشافات الذات ودورة الحياة في الكون والخليقة.

لم تكن أنماط العلاقات الاجتماعية في العصور المغرقة بالقدم (المشاعية – البدائية) متجاوز لأنماط الوعي الحسي بالأشياء المحيطة (السمع والبصر) المتجه نحو حفاظها على قانون البقاء وديمومة الحياة عبر وسائط متناسبة مع بدائية تلك المرحلة من منطلق (الحاجة أم الاختراع)، خبرة عملية دفعت الإنسان القديم إلى البحث عن وسائط حياة جديدة تخرجه من أوكاره المسكونة في الكهوف والجبال والنزول إلى الأراضي المنبسطة، ومحاولة

تطويعها لخدمة استمرار وجوده. ومن ثم ابتكاره أدوات المحراث البدائية والزراعة، وظهور أشكال الملكية الخاصة المحصورة في إطار العائلة. بحيث شكلت وسائط التعبير عن المحسوسات والانفعالات تلك الرسوم التخطيطية المطابقة لمرئياته في سذاجة توليفية. مكنته مع مرور الزمن لاكتشاف قدرات الذات الكامنة في تأليف خطوط ترسيمية أكثر تطوراً، متجانسة وحدود مشاهداته. من خلال كتابة صورية معبرة عن حالات الصيد، وأشكال الكائنات الحية المحيطة. ثم تطورها إلى صيغة الكتابة التصويرية التي تحاكي المواقف المشهدية المعايشة برسوم تخطيطية أكثر رمزية واستعارة شكلية. ليتوصل إنسان بلاد وادي النيل القديم إلى استنباط الكتابة الهيروغليفية (التصويرية). أي الكتاب المعبرة عن دين وسلطة متصلة بالفئات الطبقية الحاكمة .

إذ يمكن القول بأن لغة التفاهم السائدة في العصور المغرقة بالقدم قائمة على أساس رسوم محاكاة بدائية للطبيعة وكائناتها الحية المتصلة بدورها بقدرة الإنسان في اكتشاف ذاته ومحيطه، والتعبير عنها دون أية خلفيات جمالية. محكومة بالفطرة والتبسيط والتلقائية الساذجة العضوية غير المفكرة، ومحصورة في سياق المحسوسات الأولية (البسيطة). تتسم تلك الرسوم المباشرة للمرئيات حالات عفوية دون أية إضافات حسيّة، لتمثل شيء مادي ملموس ومحسوس بصرياً وتأخذ صيغة أشكال زخرفية وصور عابرة من حياة معايشة للإنسان القديم .

يمكن حصرها كوسائط اتصال وتعبيرات بدائية كأنماط واضحة مهفومه في أطوارها التماثلية (الصورية)إلى ثلاثة أنواع :

١. محاكاة مشابهة مطابقة للواقع .

٢. محاكاة إخبار عن علاقات تصويرية نقوشية – خطية تعبيرية.

٣. محاكاة ذات طبيعة تزينية زخرفية قائمة على المكرور البسيط للأشكال في اختزالات شكلية تحويرية من نوع تجريدي دلالي (سيميولوجي)، أي إشاري .

هذه المحاكاة الصورية قادة مع تطور العلاقات الاجتماعية ما بين الأفراد والقبائل والأقوام المختلفة إلى استنباط أشكال اجتماعية مغايرة بتأثير عمليات المثقافة الطبيعية والقسرية المفروطة بواقع الغزو والاستلاب والسبي وما شابه ذلك في تلك العصور البائدة

في معرفة أنواع بسيطة من الزراعة والصناعة والعبودية وأنظمة الرق وظهـــور الملكيـــات الخاصة التي ساهمت بشكل وآخر في تقسيم المجتمعات البشرية إلى طبقات متمايزة حاكمة ومحكومة لعبت الفنون، ومن ضمنها الخط دوراً مهماً في حياة تلك المجتمعات لما له مـــن أدوار وظيفية ذات طبيعة دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية طبقية بأن معاً .

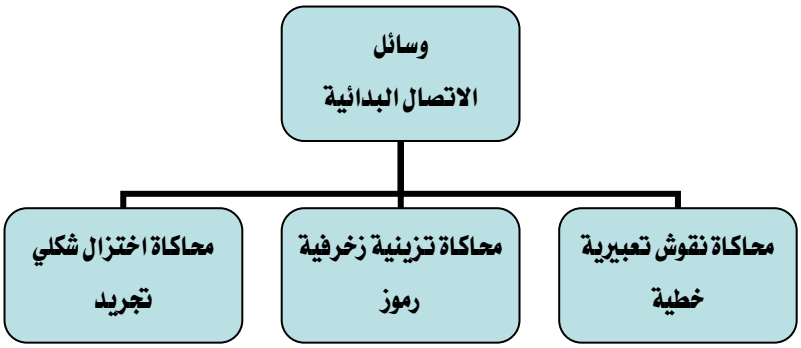

(خارطة مفاهيمية)

تاريخ الخط العربي في الجزيرة العربية :

الكتابة أو الخط العربي هو امتداد طبيعي للكتابات والنقوش القديمة من مـــسمارية وآرامية وفينقيقية وسريانية ونبطية، فيها انتقال من حالة الصورة الفطرية التصويرية العفوية إلى المدركات الشكلية الرمزية القصدية في سياق تحويرات تجريدية معبرة عن لغة تفـــاهم وتواصل سبقت اللغة المنطوقة وأتمتها في استنباط حلول تعبيرية من خلال أنمـــاط وعـــي الإنسان القديم لذاته وتميزه عن الكائنات الحية. إذ احتلت الكتابة في مفهومها ومـــدلولها التواصلي اللغة الثانية في شبهة الجزيرة العربية بعد اللغة الشفاهية المسرودة والمحفوظـــة في ذاكرة الناس ترتبط أساساً بتطور العلاقات الاجتماعية وتبادل المنافع ما بين القبيلة الواحدة أو مجموعة القبائل وسواها من أقوام أعجمية بفعل التجارة والغـــزو والقتـــال في بعـــض الأحيان. والتوصل إلى الاستقرار شبه المديني (الحضري) الذي عاشته القبائل العربيـــة في شمال الجزيرة العربية (نجد) ووسطها (الحجاز) وجنوبها (اليمن) لاسيما قبائـــل (قـــريش، الغساسنة، المناذرة وقوم حمير) وما حملته حركة القوافل التجارية من متغيرات وثقافات في بلاد الشام والرافدين والنيل وسواها .

لقد حفلت الجزيرة العربية بمفاعيل تواصل ثقافية متعددة الأشكال تناسب مرحلة البداوة غير المستقرة، عاشت القبائل العربية في حالة كر وفر بحثاً عن قوت يومهم المتجلي برعاية الأغنام والإبل والانتقال الدائم ما بين أماكن الطعام والماء. مما أتاح لهم الاحتكاك بالشعب المجاورة عن طريق التجارة والغزو في كثير من الأحوال حيث شكلت مقولة (الشعر ديوان العرب) اختزالاً مجازياً معبراً عن ثقافة مجتمع وهوية قومية فيها سيطرة لمفاصل الكلام واللغة السمعية الشفهية مشكلة ذاكرة العرب الفكرية والثقافية والتي سبقت ظهور الكتابة ومع محاولات الاستقرار شبه المديني كانت قبيلة قريش كبرى القبائل وأقوها بمثابة العمود الفقري والشريان الحيوي لقبائل الشمال والجنوب وصلة وصل ما بين الحجاز والشام، وما سوق عكاظ والمعلقات إلا شكلاً حضارياً عاكساً للواقع المعايش، ودليلاً على أن المنطقة العربية لم يبدأ فيها الإسلام من صفر معرفي بل كانت ثمة أجواء ملائمة وبطانة ثقافية حاضن لرسالة الإسلام، تلك التي بشر بها النبي العربي محمد صلوات الله عليه وسلم، هداية وبشرى لبني البشر كافة سارت قوافلها الأولى في ركاب الدعوة تحت راية الإسلام بقيادة النبي الكريم طيلة ثلاثة عشر عاماً مليئة بدروب الألم من صبر ومعاناة وجهاد.

أثر الإسلام في تطور الخط العربي :

أكثرما يميز الخط العربي هو ارتباطه الوثيق بالدعوة الإسلامية والرسالة العربية (المحمدية) عبر النص القرآني المنزل على النبي محمد ﷺ من كونه لغة دين وعلم بأن معاً. يقدم ذاته الفكرية والدينية والحضارية كرسالة متوجه إلى كافة الشعوب والأمم، ويعتبر من الفنون العريقة التي عرفتها حضارات العالم بكونه فناً متأكداً في أصالته التي شب عليها ونما منها، وتشعبت عنها ضروبه وفروعه البصرية والجمالية الرائعة، وإذا كانت قد اختلفت إليه بعض المؤثرات الخارجية والطارئة، فمسته بشيء منها، وبأثر من تفاعل حضاري مع شعوب وأمم مختلفة هذا التفاعل الذي لم يخرجه عن مقومات أصالته التي انبثق منها واستقام له أن يكون فيها حرفاً عربياً، وأن ما اتسعت له من شعوب وأمم وأمصار اعتنقت الدين الإسلامي فقد أغنت أشكاله وطورت في أنماطه وعززت من مناهج الأداء في خطه ورسمه، وذلك من خلال هذه الصفة الذاتية التي يتمايز بها الإنسان عبر التزامه الصارم بأحكام دينه، ومعايشتها واقعاً حياتياً متكاملاً ومتناسقاً، بحيث يكون لها أن تنتظم

كل علاقاته الاجتماعية، وكل دقائق أمور دنياه وكبائرها، ولا عجب إذا من أن يحيط نفسه بكل ما يذكره بما عليه من واجبات مفروضة، وما يعمق إيمانه بدينه، مما أوسع للحرف العربي أن يقيم في كل مجال توفر له، سواء أكان ذلك في صفحة من كتاب أو لوحة تصويرية أو مقطع من حائط المبنى أو آنية معدنية أو زجاجية أو قطعة قماش، أن يقيم وهجه المتألق في آية كريمة أو حديث شريف أو حكمة أو بيت شعر يستظهر مكرمة خلقية، وأن يسعى دوماً لأن يكون حقيقي بما يحمل من أمر في نشر فضائل الإسلام، فيبرز في أجمل صورة، وعلى مستوى من كان الإسلام يؤكد الأهمية الكبرى لإشاعة القراءة والكتابة، وكأنهما من بعض متممات دين الإسلام، حتى بلغ على حد قول الصحابي عكرمة ابن أبي جهل : (فداء أهل بدر أربعة آلاف، حتى إن الرجل ليفادي على أن يعلم الخط، لعظم خطره وجلالة قدره). وما يتسم به من تنوع داخل بنيته التأليفية ولعل ما يكنه المسلم من اعتزاز بوحدة شخصيته وترابطها الديني والدنيوي، ومن خوفه وحذره من أن تشت بها الأهواء، وتنال منها الأحداث، وحرصه على سلامة مآثره من الضياع له دوره في اعتكافه لتطوير كل مأثره منها، من قدرتها الذاتية، من تفاعلها مع ما يستجد عليها من ظرف طارئ، وما اجتمعت له من خبرات وإمكانات، دون أن يغفل لحظة واحدة عن إبراز الطابع المميز لفنه ومعماره، وزخارف وضروب خطوطه، بحيث يظل التنوع على اختلاف أشكاله وأنماطه من مسلمات وسمات أساسية توسم الخط العربي الإسلامي بالوحدة العضوية التكاملية في شخصية الإنسان المسلم. ومن هنا تنبه المسلمون الأوائل إلى أهمية الخط العربي ودوره الوظيفي كلغة دين ووعاء علم وفكر وفن في سعيهم الحثيث للمحافظة عليه والعمل على تعلمه وتعليمه لكافة أبناء العروبة والإسلام وإلى كل ما يصونه، في قواعد أساسي تحد مجرى الحروف وتفترض لكل نوع من أنواعها مقاساتها وطرق تحركها ومناهج أدائها وشكل أقلامها – من ناحية – وتتيح من ناحية ثانية – المجال واسعاً لكل ما يعزز جهود الباحثين فيه بفروق التجويد التي لا تنال من خصائصه الجوهرية وذلك منذ أوائل الخطاطين العرب، ومروراً بأبي علي محمد بن مقلة – المتوفى سنة ٤١٣هـ/ ١٠٢٢هـ – ونسبه في النقاط، فجمال الدين ياقوت المستعصمي – المتوفى عام ٦٩٨هـ – وبحوثه في العلاقات التناسبية بين أجزاء الأشكال والأطر المحيطة بها ووحدة الفنون، مما فصل فيها الكثيرون ممن أرّخوا للخط العربي، وصولاً إلى يومنا هذا في

لوحات الخطاطين والفنانين المحدثين برؤية جديدة تصبوا المواءمة ما بين مفهومي (الأصالة والمعاصرة) تتواصل مع ماضيه، وتستبطن طموحاً كبيراً للإفادة من قدراته الهائلة على التنويع والتشكيل.

هذا يدفعنا للقول بأن الخط العربي يشكل بذاته الفنية ومبتكريه تلك الخصوصية الذاتية للإنسان العربي – المسلم، في آلية صياغة إيقاعاتها المشتركة والمتكررة والمتواصلة وأثرها في تطور ونمو وتنوع الخط العربي، بحيث كان لكل جديد فيه ما يؤكد قديماً له، في عملية بحث جمالية تواصلية لا ينضب معينها دائمة التجدد والتوهج باستمرار وقدرة الحرف والخط العربي على التشكيل وتقديم صور بصرية حافلة بالخصوصية التعبيرية ومتميزة بدلالات الشكل والمعنى والقيمة الفكرية والجمالية والدينية التي تقف وراء كل عبارة أو لوحة خطية. تؤكد أصالته ومرونة انسيابية طيعة استجابت لنوازع الخطاطين المسلمين الابتكارية، واستحداثهم لضروب مختلفة من الأنماط الكتابية، ووفرت لهم الحرية على استخدامه كعنصر تشكيلي بصري، تتوزعه الخطوط المستقيمة حيناً والزوايا الحادة حيناً، بإيحاءات تعبيرية مستفيضة من تلك الخطوط وقد يستدير على نفسه بانحناءات لا تخلو من إيحاءات حسية عاطفية، وقد يستضيف الزخارف المتنوعة في أحيان أخرى ضمن ترابط انسجامي متكامل. ومع كل محاولة في الجدة كان يخترع قلماً، ويستنبط اسماً جديداً لخط جدي، وتفرد صفحات لقواعد ولوازم وأدوات لازمة حتى نيفت أسماء الأقلام على ثمانين قلما، لكل منها أداؤه المحدود به، وفي رسالة لأبي حيان التوحيدي عن (علم الكتابة) يذكر من أنواع الخط الكوفي وحدة والتي شاعت على أيامه – توفي ١٠١٠م – اثني عشر نوعاً، وكان بين الخطاطين من زاوج ما بين نوعين من الخطوط المتقاربة وخرج منها بخط جديد كما هو الأمر مع خط (التئم) أو التوءم المنسوب لأصله (المدني).

كان الخط الكوفي يقف في صدارة الخطوط المتميزة بقدرتها على التأليف المستمرة فيه، والابتكار في أشكاله لكثرة زواياه وأقواسه، وحسن انسجامه مع الزخارف المضافة إليه، وكان لخط الثلث – لحد ما – مثل هذه الخطوط، بعد أن انتشرت كتابة المصاحف الكريمة به، وقل مثل ذلك بالنسبة لخط (الديوان) .

من سمات الخط العربي الإسلامي بأنه تعبر عن الروح والجسد والقيم الجمالية والفلسفية والإيمانية المتصلة بالذات الإلهية (الله) جل وعلى كجمال مطلق الكلية، ومن

تلك المؤثرات والعوامل التي رأى فيها (مارتن لنجز) الاختصاصي في المخطوطات العربية، سبباً مهماً في ثراء الخط العربي، الإحساس بضرورة التماثل والمواءمة ما بين الكلمة المسموعة والكلمة المكتوبة، فإذا كانت الأولى روحاً فلتكن الثانية الجسم المجسد لجمال الروح،وهو ما نبه إليه ياقوت المستعصمي حين قال: (إن الخط هندسة روحانية بآلة جسمانية) ويكون للعين ما للأذن من وله بها، وتماثل في الابتكار المتبادل بينهما، حتى صار المتعلمون من المسلمين يتفاضلون بجمال خطوطهم وحسن كتاباتهم، كما يتفاضلون بعلو مراتبهم في العلوم والفنون والآداب. كما لمدارس الخط من العناية ما يوشك أن يكون لمثلها في الأدب واللغة كان على الخطاط أن يوسع من قراءته في الدين والحكمة والأدب والشعر ليختار من الكلام ما هو حقيقي للابتكار في خطه. وإن هذه المواءمة ما بين الكلمة المسموعة والكلمة المكتوبة، فإذا كانت الأولى روحاً فلتكن الثانية الجسم المسجد لجمال الروح، وهو ما نبه إليه ياقوت المستعصمي حين قال: (إن الخط هندسة روحانية بآلة جسمانية) ويكون للعين ما للأذن من وله بها، وتماثل في الابتكار المتبادل بينهما، حتى صار المتعلمون من المسلمين يتفاضلون بجمال خطوطهم وحسن كتاباتهم، كما يتفاضلون بعلو مراتبهم في العلوم والفنون والآداب. كان لمدارس الخط من العناية ما يوشك أن يكون لمثلها في الأدب واللغة كان على الخطاط أن يوسع من قراءته في الدين والحكمة والأدب والشعر ليختار من الكلام ما هو حقيقي للابتكار في خطه. وإن هذه المواءمة ما بين الكلمة المسموعة والكلمة المكتوبة اللتين تقدستا بكونهما حملتا القرآن الكريم هدى للناس أفردت كل نوع من أنواع الخطوط للإيفاء بغرض من الأغراض، وخصته باستعمالات معينة راح يتطور من خلالها، ويسعى لإبراز محتواها ودلالتها المعنوية، فكتابة المصاحف الشعر والحكم خطوطها، وللدواوين والمراسلات خطوطها أيضاً، وحسب الخط الكوفي دوره في إيضاح ذلك بما كان لكل نوع من أنواعه ما يخصه بتوجيه معين (فالكوفي التذكاري) استخدم في الغالب لكتابة الآية القرآنية الكريمة أو الحكم، وتثبيت تواريخ الوفيات والولادات وما شابه ذلك (الكوفي المصحفي) انتسب بصفته هذا إلى شيوع نسخ المصاحف الكبيرة وعلى الأخص في القرون الثلاثة الأولى التي أعقبت الهجرة النبوية، و(الكوفي البسيط) خص بالمادة التحريرية التي تبرز المعنى بيسر قراءة حروفه، بينما تحول (الكوفي المورّق) الذي شاع على أيام الفاطميين فعرف بالتوريق الفاطمي، و(الكوفي

المخمل) و(الكوفي المضفر) المنسوب إلى شكل الضفيرة و(الكوي الهندسي) الساعية لتأكيد النوازع التزينية تبعاً لتطور الواقع الاجتماعي وتعمق الحس الجمالي وقل مثل ذلك بالنسبة للخط (الديواني) و(الثلث) انطلاقاً من أبسط أشكالهما الإنسيابية، وإلى أعقدها في طغرائية السلاطين العثمانيين، وما تفرع عنها من تشكيلات تجريدية على جانب من الغنى الأدائي. وفي أحيان في حرف أو جزء من حرف اتخذ له شكلاً، حيث وقف (الألف) كالسيف رهيف القامة وقد اعتلته قبضته، أو حيث تصير نهايات بعض الحروف مناقير معقوفة لصقور، وهكذا يصير للكلمة ما يطرحها بعداً في الرمز، كمفردة الشاعر حين تمد نفسها إلى أكثر من غرض في الدلالات الإيحائية أو الإيمانية. ولابد من الإشارة عند التعرض في الحديث عن المؤثرات والعوامل في تطور الخط العربي إلى أثر الحيز أو المجال الذي مورست فيه الكتابة، والمواد التي استخدمت في الكتابة، وإلى ما كان لهما من وقع إيجابي في مسيرة الخط العربي، بعد أن أصبحت الكلمة المدونة من بعض الأسس الرئيسية في تزيين المساجد وقبابها والقصور والأبواب والسيوف ودروع وخوذ المحاربين، والأواني النحاسية والزجاجية. وأمسى للخط العربي حالة من التكيف للحيز المفرد له شكلية مناسبة، وللمادة المعد له بما يصلح لها من أسلوب في الأداء، فقد يختزل الكلام نفسه ويتكور بعضه على بعض بأثر من ذلك وقد تقصر أطراف بعض الحروف أو تطول، وقد يندمج حرف بحرف في شكل واحد، أو تتوزع النقاط على الفراغ، وقد يتوزع حرف بين كلمتين، أو يختل رسم الحروف ومقاساتها عبر ابتداع شكليات جديدة لها إيقاعها الجمالي الخاص بها ولا يكون لها مثل هذا الإيقاع لو نقلت إلى حيز آخر ولو نقشت على مادة مختلفة، وقد يتوزع العمل بين شخصين أو أكثر ضمن أداء أسلوبي واحد، ورؤية جمالية منسجمة وإدراك متواز في استخدام المساحة المسطحة بما يهب للحرف جماليته المنبثقة من حسن التوافق بين أجزاء العمل كله، وهكذا وقعنا على نماذج رائعة في الكتابة المعمارية من الخط الموازي أو الخط المنحنى ومن خلال أشكال هندسية عديدة يتقاسمها المستطيل والمربع والمثلث والمثمن التي أتاحت مجالاً حيوياً للخطاطين في استنباط أشكال الحروف والخطوط بما يناسبها وهو ما يمكن أن نقول ب بالنسبة للكتابة على الأبواب الخشبية والأواني النحاسية والزجاجية وما تبعها من زخارف ورقية هندسية، وابتكار في رسم الحرف، فهناك من استخدام التكرار الإيقاعي عبر قيم ضوئية أو لونية فيسفسائية ليوحي ببعد

منظوري، يلوح لك وكأنه منعكس على مرآة. هناك من كرر الحرف وتدرج في رسم نماذجه، وكأن الواحد صدى للآخر في إيقاع ذي مستوى أدنى، وهناك من الخطاطين من شفت حروف كلماته، فبدت كأنها ظلال متلاحقة تناسب القماش الشفاف الذي خطت الجملة عليه .

لقد دفع تعدد مجالات استخدام الخط العربي بالخطاط إلى أن يرهف من حساسيته التشكيلية وقدرته على الابتكار وضبط إيقاعات الحروف وتوازها الأفقي والعمودي، بحيث يكون لحروفه أن تنعقد في دائرة أو مربع أو مستطيل وعامود تتخذ لها شكل مخمس أو مثمن، تتحدد أطرافها بمجموعة من حرف الألف أو اللام لتصبح بالتالي ضرباً من الزخرفة الشعاعية القائمة على المزج بين الإشعاعات النابذة، والإشعاعات الجاذبة التي تدور حول بؤرة مركزية. وكثيرة هي النماذج الكتابية التي تبوح بالمعاني والدلالات الرمزية والدينية والجمالية المكرسة لمعاني ومفاهيم وتوجهات النص القرآني بدءاً من الآية الكريمة الأولى التي نزلت على سيدنا محمد (العلق): ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾. ولكن، ومما لا شك فيه، أن الدين الإسلامي قد أولى أهمية فائقة للقراءة والكتابة، وكأنهما من بعض متممات وعي الإنسان المسلم بدينه، ومن بعض مستلزمات تعميق إيمانه به، وفي القرآن الكريم أكثر من آيات قد جاءت على ذكر القلم تكريما لأهمية الكتابة والقراءة وحتى القسم به في قوله تعالى: ﴿ نون والقلم وما يسطرون ﴾. وإن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، ومن تولى أمور المسلمين بعدهم لم يكفوا عن الحث على ذلك مولين كل الأهمية للحرف والكتابة العربية (الخط العربي) في كافة معاملاتهم الدنيوية والدينية والفكرية والعلمية وإلى ما هنالك من منتجات اجتماعية تواصلية ومن خلال الحرف والخط العربي المدون تم نشر الدعوة الإسلامية عبر القرآن الكريم والسنة الشريفة، وبه تناقلت ثقافة المجتمع الإسلامي إلى مشارق الأرض ومغاربها، فخرج الخط العربي بذلك عن مجرد كونه وسيلة تعبير وإيصال إلى غاية في التفاضل على غيره من الخطوط، وحفل بتلك الخصوصية والقدسية التي عززت من مكانته، وأوثقت الصلة بين جماله ودلالته اللفظية والمعنوية، فهو كما يقول الإمام علي كرم الله وجهه :

(من أهم الأمور وأعظم السرور) وفي موضع آخر يقول: (الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً)، وصار للمجيدين في صنعة الكتابة فضل الدالين إلى الخير والإيمان، يحمله كابر عن كابرٌ وصية في عنقه ويتبارى الحكام والولاة في رعايته، وعلماء الدين في اعتباره جهداً مباركاً وكان بعض قادة المسلمين يوصون بالخطاطين عندما يضطرون للسفر، وكان كل منهم يحاول جاهداً أن يصل إلى المبرزين منهم وجمع أعمالهم حتى ليروي أن سيف الدولة الحمداني كان يحتفظ بقرابة خمسة آلاف ورقة مكتوبة بخط عبدالله بن مقلة .

إن غنى الخط الكوفي وسعة انتشاره وكثرة أنماطه وأنواعه تعود إلى تلك العاطفة الدينية التي يكنها المسلم لهذا الخط والتي تدفع بالخطاطين باستمرار الابتكار فيه، والتذكير بكونه الخط الذي واكب ابتكاره مع ولادة الدين الإسلامي، وبدأت بأشكاله المزاوة البدائية مجالاً لانتشار القرآن الكريم في أوائل سنوات الهجرة، ويوم أن اصطلح على تسميته بالخط الكوفي في فترة متأخرة، كان قد استتب أمره ضمن نسخ زخرفي رائع وذلك بدء من القرن الثامن الميلادي، ويرى « لنجز » الخبير في الفن الإسلامي بأن من الممكن اعتبار الخط الكوفي أحد الوسائل العظيمة التي استخدمت لنشر الدين الإسلامي في كل العصور. خاصة بعد أن انتدب كبار الخطاطين المسلمين أنفسهم للقيام بهذه المهمة الشريفة من أمثال علي بن البواب الذي تنتسب إلى خطه مخطوط رائعة للقرآن الكريم كتبها عام ١٠٠١ للميالد وتحتفظ بها (مكتبة جستربيتي) بدبلن، وضبط فيها نسبة الدقيقة القائمة على اعتماد حروف الألف مقاساً لحساب كل الحروف الأخرى، وقد شهدت فترة حكم المماليك في مصر تكريساً لا مثيل له في خط المصاحف والعناية بزخارفها وعلى أيدي خطاطين ملمين بأصول الخط كابن الوليد، تلميذ الخطاط المشهور ياقوت المستعصمي، والزخرفي أبي بكر صندل، وابن مبدر وغيرهم ممن أغنوا تلك الخطوط بما يحيط بها من زخارف على جانب كبير من الدقة والرهافة، وثمة زخارف مدت بأُولها إلى مؤثرات خارجية سرعان ما أصبحت جزءاً من الأربسك الإسلامي .

إن انتشار الإسلام في مشرق الأرض ومغربها، ودخول مختلف الأقوام فيها، وسعي كل قوم وكل قطر إسلامي أن يميز نفسه بخط معين وزخارف معينة، فضل كبير على وفرة أنواعه وغنى أساليبه، فإن رحل للمغرب العربي كان له منه ضرب جديد في الخط، ونمط فريد كالذي نجده في مصحف محفوظ في متحف فكتوريا وألبرت تحت رقم ١٤٠٥ ب.

ل. س وقد خط باللون الذهبي على ورق مخضب باللون الأزرق ويعود إلى القرن الثالث عشر، وإن مر الخط الكوفي بالهند كان كوياً هندياً، وإن وقع إلى خلفاء بني عثمان جندوا له من كبار الخطاطين من أبدعوا فيه، وتفاضلوا في زخرفته، وهو في إيران موضع عناية وتكريم كبيرين أغنيا نماذجه وأساليبه، ولا يخفى على أحد أن الخط العربي، يوم أن وقع إلى الصين تأثر بالخط الصيني، وقل مثل ذلك بالنسبة للخط العربي في بلاد الأندلس.

وأخيراً يمكن القول إن الخط العربي كشكل، كان طوال رحلته عبر القرون الماضية ملتقى حوار مستمر بين العلم والفن يعمق وعينا في هندسته، ويرهف حسنا بجماليته، ويرغم العين على أن تتبع كل حرف من حروفه وكيفية تداخل بعضها ببعض بما يغير مراكز اللوحة باستمرار، فيخيل إليك « أنه يتحرك وهو جامد » وهذه السمة من خصائصه المميزة لتشكيل صورة فنية جمالية تشكيلية رائعة .

تاريخ الخط في عهد الإسلام – مرحلة الدعوة :

نشأ الخط العربي – كما أشرنا – في شمال جزيرة العرب بتأثير من الخطوط السائدة في العراق لاسيما بلدتي الحيرة والأنبار المركزين الرئيسيين اللذين ابنعث منهما تعليم الكتابة الخطية للجزيرة العربية، ثم انتقل إلى مكة، والمدينة، والطائف، وغيرها من المراكز المتقدمة حضارياً، وقد كان العرب قبل الإسلام يهتمون بالكتابة فاستعملوها في شؤون حياتهم كتدوين العقود، والوثائق السياسية والتجارية، وشؤون الأدب والشعر، وكل جوانب الحياة، فلم تكن الأمة العربية أمية بمعنى أنها تجهل القراءة والكتابة؛ فإن نزول القرآن العظيم عليها بهذا العمق الفكري، وبهذا الأسلوب البليغ يعني أن هناك أمة لديها القدرة على فهمه وحمل رسالته وتبليغها للناس أجمعين وعندما دخلت الكتابة الحجاز، وانتشرت الكتابة في مكة المكرمة، وتعلمه بعض الرجال الذين أصبحوا من كبار الصحابة، وبعدما حدث له نوع من التعديل يتناسب مع البيئة الجديدة، فكتبوا القرآن الكريم بعد نزوله من الوحي بأمر من النبي ﷺ ، كان يمليه عليهم فتأنقوا في الكتابة، واعتذوا في التدوين إكراماً وإجلالاً للكلام المنزل من رب العالمين، وصارت الكتابة المكية ذات أسلوب جديد وشكل معدل وحرف متطور، وأصبح لهذا الخط الجديد الشرف الأكبر والفضل العظيم بأنه دون القرآن الكريم .

ولما أنشأ عمر بن الخطاب مدينة الكوفة سنة ١٨هـ انتقل الناشط السياسي إليها وإلى البصرة فكثرت الكتابة تبعًا لهذا النشاط وأصبح صنعة تحتاج إلى الاهتمام والتنميق، فأطلقوا في الكوفة والبصرة على الخط المكي الخط الحجازي.

إن مسيرة الخط العربي مسيرة لتاريخ المسلمين تبين بامتدادها وتشعباتها المراحل التي عاشها المسلمون على مدى فترات تاريخها الطويل، فالخط العربي يُمثل الركيزة الكبرى للفنون الإسلامية ولا يكاد يوجد عمل فني إسلامي إلا بوجود نماذج منه في كل فنون العمارة الإسلامية ثم سميت الكتابة الحجازية التي نالت كثيرًا من العناية في الكوفة بالخط الكوفي، وفي البصرة سميت بالخط البصري، ثم أطلق الخط الكوفي على (الخط الكوفي أو البصري). ولما كانت الكتابة تستخدم في الدواوين والتأليف والمراسلة والأغراض اليومية، وكلها في حاجة إلى خط يغلب عليه طابع المرونة والسرعة ي الأداء والانتقال بها في يسر ودون عناء، فلزم أن تتطور الكتابة لهذه الأغراض إلى كتابة لينة مخففة أكثر من قبل لتسمى فيما بعد بالكتابة اللينة، أو خط التحرير، أو خطط نسخ الكتب ، ولما بدأت الكتابة على الأحجار في المساجد، وعلى الجدران والمحاريب، وجد أن الكتابة اللينة لا تصلح لذلك؛ فأخذ الخط طابعًا مغايرًا للكتابة اللينة فرضته طبيعة تنفيذه، فسمي الخط الجاف أو الخط اليابس أو الخط التذكاري، وظلت صورته هذه تحفر في المواد الصلبة كأحجار المباني وشواهد القبول وخشب المنابر ونحاس الصواني وغيره.

أما المصاحف فقد كانت تحتاج في كتابتها إلى شيء من العناية والرعاية والإجلال لتناسب مكانة هذا الكاتب في قلوب المسلمين، فكتبت بنوع وسط بين اللين واليابس فأخذت من اللين مرونته ومن اليابس هيبته وجلاله، وسمي ذلك الخط بالخط المصحفي، وهذا وجدنا الخط سمي في البداية مكيًا ثم حجازيًا ثم كوفيًا وانقسم الكوفي إلى لين مقور، ويابس مبسوط ووسط بينهما، وسمي الوسط الخط المصحفي وظل هو الخط المفضل لكتابة المصحف مدة ثلاثة قرون.

كان العرب يكتبون على أكتاف الإبل، واللخاف (الحجارة البيضاء العريضة الرقيقة) وسعف النخل، والجلود، وعلى ورق البردي الوافد من الصين، ثم على الورق الخرساني الذي كان يعمل من الكتان على مثال الورق الصيني الذي كان يصنع من

الحشيش واستخدم الخطاطون في بداية الأمر الرق وهو جلد رقيق كانوا يكتبون عليه، وظهرت فيه الملامح الأولى لفن الكتابة الإسلامية، وظل الرق مستعملاً في المغرب حتى بعد تركه، والإقبال على الورق في مناطق أخرى، وتوجد هذه الرقاق منثورة في المتاحف العالمية والإسلامية.

ظل الناس في مختلف الأمصار الإسلامية عاكفون على قراءة القرآن كما هو في مصحف عثمان إلى ما يقرب من أربعين سنة بدون تنقيط الحروف أوتشكيلها، وعندما دخل الإسلام أمم غير عربية نتيجة للفتوحات الإسلامية، اختلطوا بالمسلمين العرب فادى إلى ظهور اللحن والتصحيف (القراءة المغلوطة) حتى أصبحت الحاجة ملحة لوضع تشكيل للحروف، وتم ذلك على يد أبي الأسود الدؤلي ثم تبعه تلاميذه من بعهده، ثم وضع النقط على الحروف غير المنقوطة تلميذاه نصر بن عاصم ويحى بن يعمر في عهد الحجاج المتوفرى عام ٩٥هـ، ثم وضع تشكيل الحديث الخليل ابن أحمد المتوفى عام ١٧٠هـ، فالتشكيل وإعجام الحروف بالنقط تم في النصف الثاني في القرن الأول الهجري، وتشكيل الأنماط الحديثة تم في القرن الثاني الهجري.

تاريخ الخط العربي في عهد الخلافة الأموية بدمشق:

مما لا شك فيه، بأن الحقبة الأموية في الخلافة العربية الإسلامية كان لها أكبر الأثر في الاستقرار النسبي والتوسع المكاني والازدهار العمراني الذي وصلته قوافل المسلمين بعد الفتوحات العربية الإسلامية الأولى التي قادها بفاعلية وأثر الخليفة الراشدي (عمر بن الخطاب)، حيث كانت أمست مدينة دمشق هي مركز الدولة الإسلامية بعد مكة وبداية لمرحلة زمنية مليئة بالأحداث والجماليات والتفاعل الثقافي داخل الدولة العربية الإسلامية الحاضنة لمجموعة من الشعوب والثقافات التي دخلت بوتقة الدعوة الإسلامية وانصهرت في ثقافتها وحضارتها كرسالة إنسانية للبشرية كافة.

مؤسسة ررؤية جديدة للتعامل مع النص القرآني وتحسين أشكال الخط العربي خوفًا من الخروج عن جوهر الدعوة والتشويه العفوي والمقصود من اتباع أساليب معالجة جديدة في تنقيط وتشكيل القرآن الكريم وحسن تجويد خطوطه على يد أبي الأسود الدؤلي. مما دفع وقد كان للفنون العربية الإسلامية صولة وجولة من خلال مظاهر العمران

المتجلية في القصور والمساجد ودور العلم وإلى ما هنالك من مؤسسات معنية بتسيير شؤون الخلافة. إذ لعبت دور الكتابة والوراقين دورًا مهمًا في تطوير أنماط وأشكال الخط العربي واحتل مساحة مهمة من تفكير الخلفاء والولاة والأمراء لأسباب ذاتية ودينية تخلد ذكراهم وأعمالهم وتؤرخ لمرحلتهم الزمنية، وكانت مسألة تجويد الخط العربي والدقة والكمال في الكتابة، ميدان واسع من ميادين الفنون الإسلامية التي شغلت الخلفاء والقادة. وأفسحت المجال لاحتضان مواهب وأسماء عديدة لمعت في ميادين تطوير أنماط الخط العربي لاسيما في سياق كتابة النصوص القرآنية وتزيين القصور ودور العلم والمساجد بالآيات القرآنية التي تفوح من خلالها عظمة الدعوة الإسلامية وقدرات الخالق الواحد الأحد (الله) جل وعلى، وفي مقدمتهم الخطاط (خالد بن الهيباج) الذي اشتهر بكتابة المصاحف والتجويد بها. وبرز أيضًا الخطاط (قطبة المحرر) من كونه أنموذجًا فريدًا في المرحلة الأموية حجر الأساس في فتح أبواب الاجتهاد والابتكار لما قدمه من مساهمات ابتكارية لاستنباط خطوط جديدة للخط الطوفي، وبرع في اختراع أقلام جديدة لكتابة خطوط (الطومار – الجليل) وبرز أيضًا أسماء الخطاطين (مالك بن دينار، الرشيد البصري، مهدي الكوفي) الذين قدموا الوليمة الابتكارية لمن تبعهم من الخطاطين المنضوين في إطار العصور الإسلامية المتعاقبة.

الكتابة العربية في ظل الإسلام:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾، وقال أيضًا ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾.

وقال الرسول الأعظم ×: «قيدوا العلم بالكتاب»، ومن أحاديثه الكريمة أيضًا، «ما حق أمرئ له ما يوصي فيه يبيت ثلاثًا إلا وصيته عنده مكتوبة »، وجاء عن ابن عباس عن رسول الله × أن: «أول ما خلق الله من شيء القلم » .

كان حذق العرب للكتاب الجاهلية حادثًا في تاريخ الفكر، لم يظهر خطره إلا بظهور الإسلام، والحق أن الكتابة خدمت الإسلام خدمة لا يضارعها شيء آخر، ذلك أنها كانت بالنسبة له خيرًا من السيف .

وكانت الكتابة العربية محدودة المعرفة في الحجاز قبل الإسلام، عرفها أهل الذمة، وعنهم أخذها الصحابة من كتاب الوحي، ثم تعلمها عامة العرب في صدر الإسلام، لما أدركوا من قيمتها في التدوين منذ أن خرج العرب فاتحين في أرجاء العالم قدر لهم أن يفتحوه. وهكذا لازمت الكتابة الإسلام تخدمه ويخدمها، ويعظم شأنها بعظم شأنه، ولا غرو فهي الوسيلة إلى تعلم العربية من ناحية، وحذق القرآن والسنة من ناحية أخرى، فضلاً عما هي طريق إلى خدمة الجدولة وذوي السلطان.

جاء الإسلام وحمل معه العوامل التي فرضت استخدام الكتابة، وزادت من ساحة استخدامها اتساعًا، فدخلت الكتابة بمقدم الإسلام صفحة جديدة مضيئة، إذا بدأت تعمل من خلال النظام الاجتماعي الجديد الذي وضعه الإسلام بكل جوانبه المادية والمعنوية، وصارت واسطة من أهم الوسائط في التثبيت والتسجيل والتلقين والنشر، حتى تطورت وأصبحت خلال النصف القرن الذي أعقب الهجرة النبوية مظهرًا لتطور عظيم يفوق ما كانت عليه قبل ثلاثة قرون مضت، واكتسبت الكتاب مع أول سورة نزلت في خمس آيات على النبي محمد ×، وبدأت بقوله تعالى: ﴿اقرأ﴾ أهمية قدسية لا زالت تحافظ عليها حتى الآن.

وعندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ولزم التكاتب مع الأمصار في شؤون الدين والدنيا، ظهرت للكتابة فائدة أخرى لم تكن في الحسبان، أنها غدت وسيلة من وسائل الحكم، كانت بها تصدر المكاتبات من الخلفاء إلى عمالهم على الأقاليم، وتدون الدواوين وتضبط أمور الدولة.

وكان أول انتشار الكتاب العربية من مكة إلى المدينة مع هجرة الرسول، كما كان أو انتصار لها انتزاعها من بين أيدي أهل الذمة واتخاذها وسيلة لنشر القرآن.

وصارت المدينة على هذا النحو أول مركز لتطور الخط بعد ظهور الإسلام.

فنحن نعلم اليوم أسماء ما يزيد على أربعين من صحابة الرسول ×، كانوا يقومون له بوظيفة الكتابة وخاصة بكتابة الوحي. وبعض هؤلاء كانوا مكلفين بالعمل في ساحات وموضوعات معينة مثل كتابة العهود والرسائل التي يرسلها النبي إلى ملوك وغير ذلك، حتى لقد كان من بينهم من يجيد لغات مختلفة، مثل زبد بن ثابت، الذي تعلم الفارسية

والرومية والقبطية والحبشية من أهلها في المدينة، وكان يترجم للرسول ×، الوثائق التي ترده بهذه اللغات، ومن المحقق كذلك أنه كان هناك من الصحابة من وقفوا على العبرية والسريالية وخبروا خطوطها .

اهتمام الرسول الأعظم محمد × في نشر الكتابة:

إن نبينا محمد ×، كان يدرك أن للكتابة أثرًا عظيمًا وعونًا كبيرًا في نشر الدعوة الإسلامية الكريمة، وكان أقرب الناس إليه الكتاب وخاصة كتاب الوحي، ولا غرو فالكتابة هي الوسيلة الوحيدة لتدوين كلام الله وأحاديث رسوله، والتدوين هو وسيلة البقاء ووسيلة الذيوع والانتشار.

وأن للدين الإسلامي بشكل عام وللنبي الكريم بشكل خاص أثرًا عظيمًا في انتشار الكتابة في فجر الإسلام، نتيجة للاهتمام الزائد عصرئذٍ في تعليم ونشر الكتابة بين الناس عامة.

وبانتشار الإسلام أصبحت الحاجة ملحة في تعليم المسلمين القراءة والكتابة، ولذا نرى الرسول الأعظم محمد × أدرك قيمتها، وفي غزوة بدر الكبرى يطلق سراح الأسير إذا علم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة.

ولا غرو في ذلك فالكتابة العربية، هي أداة كتابة القرآن الكريم، وكان لزامًا أن يتعلم القوم الكتاب، لتدوين الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

ويعد الرسول الأعظم ×، أول من عمل على تعليم الخط العربي ونشره بين المسلمين من الرجال واهتم أيضًا بتعليم النساء، وأنه أمر الشفاء أن تعلم زوجه حفصة الكتابة ليقتدي به المسلمون في تعليم النساء القراءة والكتابة.

إن ذلك الحرص الشديد من الرسول الكريم على نشر وتعليم الكتاب بين الناس، كان نتيجة لدرايته العظيمة بأهميتها في نشر المعرفة، كما كان يدرك تمامًا الأهمية القصوى للكتابة في تحديد علاقات الناس بعضهم ببعض، وتثبيت ما لهم وما عليهم. فضلاً عن أهميتها في تدوين القرآن الكريم وتثبيت العقود والصكوك وتبيان الاتفاقيات والمعاهدات، وقد نصت على ذلك الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾.

ثم كانت الحاجة إلى تثبيت أموال الزكاة والمغانم. هذا وقد وردت إشـــارات إلى عدد كبير من الكتاب الذين استخدموا في الكتابة عند الرسول الأعظم منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وثمان بن عفان رضي الله عنه، وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم .

كتاب النبي محمد ×:

اتخذ رسول الله ×،لنفسه كتابًا من أجلاء الصحابة رضي الله تعالى عنهم، لكتابة الوحي، ولكتابة الرسائل التي يبعثها إلى الملوك وغيرهم، ثم تختم بخاتمه ×، فمنهم الخلفـــاء الأربعة، وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان، وأن زيدًا بن ثابت لكثرة كتابته الـــوحي أطلق عليه كاتب النبي ×، (وقد ذكر البخاري في صحيحه بابًا بهذا الاطلاق، وعبدالله بن الأرقم الزهري، وكان يكتب لرسول الله × الرسائل للملوك وغيرهم، وأبي بن كعـــب، وهو أول من كتب له ×، من الأنصار بالمدينة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وهو أول من كتب الوحي من قريش بمكة، لكنه ارتد ثم عاد إلى الإسلام يوم الفتح، كما ذكـــره القسطلاني، والزبير بن العوام، والعلاء بن الحضرمي، وشرحبيل بن حسنة، وعمـــرو بـــن العاص، وحنظلة بن الربيع الأسدي، وخالد وحبان ابنا سعيد بن العاص بن أمية، وعـــامر بن أبي فهيرة ومعيقيب بن أبي فاطمة، وغيرهم.

ويذكر لنا المؤرخ عباس العزاوي في مخطوطته (بغداد عامة الخط العربي)، ما نصه: (جاء الإسلام وكان يعرف الخط نفر قليل من رجال قريش وهم).

- أبو بكر الصديق.
- عمر بن الخطاب.
- عثمان بن عفان.
- علي بن أبي طالب.
- أبو عبيدة الجراح.
- طلحة بن الزبير.
- يزيد بن أبي سفيان.
- أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة.

- حاطب بن عمر العامري.
- أبو سلمة بن عبدالأسد المخزمي.
- ابان بن سعيد بن العاصب بن أمية.
- خالد بن العاص بن أمية.
- عبدالله بن سعيد بن أبي سرح العامري.
- حويطب بن عبدالعزي العامري.
- أبو سفيان بن حرب بن أمية.
- معاوية بن أبي سفيان.
- وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن عبد مناف.
- الزبير بن العوام.
- ورقة بن نوفل بن خال خديجة زوج النبي ×.
- العلاء بن الحضرمي من حلفاء قريش.

ومن النساء.

- الشفاء بنت عبدالله العدوية (كانت كاتبة في الجاهلية).
- أم كلثوم بنت عقبة.
- عائشة بنت سعد.
- كريمة بنت المقداد.
- حفصة ، أمر الرسول الشفاء أن تعلمها فعلمتها.

ولما هاجر المسلمون إلى المدينة وجدوا في أهلها نفرًا قليلاً من اليهود وفي الأوس والخزرج من يعرف الخط، فاستقل الرسول × أكثر من ثلاثين رجلاً من الأوس والخزرج لكتاب الوحي، وكان أول من كتب الوحي أبي بن كعب الأنصاري، وهو أول من كتب في آخر الكتاب .. وكتب فلان .

وروي لنا البلاذري في كتابه «فتوح البلدان» عن كتاب النبي محمد × ما نصه : قال الواقدي: (كان الكتاب العربية في الأوسط والخزرج، قليلين وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية، وكان تعلمه الصبيان في المدينة في الزمن الأول، فجاء الإسلام في

الأوس والخزرج عدة يكتبون وهم سعد بن عبادة بن دليم والمنذر بن عمـــرو وأبي بـــن كعب وزيد بن ثابت، فكان يكتب العربية والعبراية، ورافع بن مالك.

وأسيد بن حضير، ومعن بن عدي البلوي حليف الأنصار، وبشير ابن سعد، وسعد بن الربيع وأوس بن الخولي وعبدالله بن أبي المثانق.

ويذكر لنا محمد طاهر الكردي في كتابه «تاريخ الخط العربي وأدابه»، بشأن دخول الكتابة إلى المدينة المنورة، ما نصه «فقد ذكروا أن رسول الله × دخلها، وكـــان فيهـــا يهودي من يهود ماسكة يعلم الصبيان الكتابة، وكان فيها بضعة عـــشر مـــن الرجـــال يعرفونها، منهم زيد بن ثابت، وكان يكتب الكتابين العربية والعبرانية، وسعيد بن زرارة، والمنذر بن عمرو، وأبي بن كعب، ورافع بن مالك، وأسيد بن حضير، ومعن بن عـــدي، وأوس بن خولي، وأبو عبس بن كثير وبشير بن سعد، وكان الأوس والخزرج مشهورين في الكتابة وكذلك ثقيف.

وقد روي عن ابن قتيبة: أنه قال: (أن العرب كانت تعظم قدر الخط وتعده من أجل المنافع، حتى قال عكرمة فداء أهل بدر أربعة آلاف، حتى أن الرجل ليفادي على أنه يعلم الخط، لما هو مستقر في نفوسهم من عظم خطره، وظهور نفعه وأثره، وكـــذلك كـــان رسول الله × يحثهم على تعلمه، وكان يتخذ من تعلمه وحسن خطه كاتبًا لنفسه يبعـــث إلى ملوك الأرض كتبًا يدعوهم إلى الإسلام.

فبهذه الطريقة أخذوا يتنافسون في اتقانه وجودته، ويتقنون في تحسينه، حتى انتـــشر الخط والكتابة في الأمصار والقرى، وقد كان عليه الصلاة والسلام هو أول مـــن عمـــل لإحياء هذا الفن الجميل، وليس ذلك بعجيب ، فهو المنقذ الأعظم للعالم أجمع، وبالأخص للأمة العربية الكريمة، أخرجهم من الظلمات إلى النور).

نعم هذا شأن الكتابة وشأن من تعلمها من الكتاب، وبهذه الوسيلة دونت آيـــات القرآن الكريم، وبيد أمهر الكتاب فجزاهم الله الخير لحفظهم بالكتابة كلام الله المقدس.

رسائل النبي × التي بعثها إلى الملوك والرؤساء.

بعد أن تم صلح الحديبية في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للـــهجرة، رجـــع رسول الله × قرير العين بما فتح الله عليه، فعندئذ كتب إلى الملوك من العـــرب والعجـــم ورؤساء القبائل والأساقفة والمرازبة والعمال وغيرهم يدعوهم إلى الله تعالى وإلى الإسلام.

فقد بعث الرسول إلى كسرى، وهرقل والنجاشي، وغيرهم، فكأن حاطب بن بلتعة رسوله إلى المقوقس بمصر، وأرسل شجاعًا بن وهب الأسدي إلى الحارث بـــن أبي شمـــر الغساني، وأرسل دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، وأرسل سليطًا بن عمر العـــامري إلى هوذة بن علي الحنفي، وبعث عبدالله بن حذافة إلى كسرى، وأرسل عمـــرو بـــن أميـــة الضمري إلى النجاشي، وأرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي أخ عبدالقيس.

إن مهادنة قريش أعطت المسلمين فرصة للدعوة إلى الإسلام والتعريف به، وكان من ذلك أن بعث الرسول تلك الكتب لرؤساء القبائل المحيطة بالجزيرة، يدعوهم أن يـــدخلوا هم وأتباعهم وشعوبهم دين الله، وبين لهم مبادئ هذا الدين وقواعده.

(لقد جاء في المدونات التاريخية الإسلامية، أن النبي الكريم × قد أرسل عددًا مـــن الرسائل إلى الملوك وأمراء الدول المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام، ومن تلك الرسائل :

- كتابه إلى قصر ملك الروم.
- وكسرى ملك الفرس.
- والنجاشي ملك الحبشة.
- والمقوقس حاكم الإسكندرية.
- وجيفر وعبد ابني الجلندي ملك عمان.
- وثمامة بن اثال، وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة.
- والمنذر بن ساوي ملك البحرين.
- والحارث ابن أبي شمر الغساني، ملك تخوم الشام.
- والحارث بن عبدكلال الحميري ملك اليمن.

وتستطرد الباحثة سهيلة الجبوري فتقول:

(ومع أن بعض المختصين يشكون في وجود آثار مكتوبة أصلاً ترجع إلى عصر النبي الكريم، فقد نسبت وثائق مدونة إلى تلك الحقبة الزمنية منها أربع رسائل قيل أنها رسائل أصلية للنبي الكريم ﷺ وهي:

كتابه إلى المنذر بن ساري.

وكتابه إلى النجاشي.

ثم كتابه إلى كسرى.

وأخيرًا كتابه إلى المقوقس.

ولقد أثارت هذه الوثائق الأربع ضجة ليس لدى المهتمين بالفنون والتراث الإسلامي فحسب، بل لدى الناس بشكل عام، نظرًا لمكانتها الدينية المقدسة ولأهميتها الفنية الكبيرة في أوساط المسلمين.

كتابه إلى ﷺ إلى المنذر بن ساوي:

وأما المنذر بن ساوي أمير البحرين، فلما أتاه العلاء بن الحضرمي، يدعوه ومن معه بالبحرين إلى الإسلام أو الجزية، وكانت ولاية البحرية للفرس، فأسلم المنذر بن ساوي وأسلم جميع العرب بالبحرين.

فأما أهل البلاد من اليهود والنصارى والمجوس فإنهم صالحوا العلاء والمنذر على الجزية من كل حالم دينار، ولم يكن بالبحرين قتال حيث أسلم بعضهم، وصالح البعض الآخر، وقد عثر على أصل هذا الكتاب في دمشق وقد نشر في المراجع التالية: **(Islamic Cultuer 4413: p249)**. الوثائق السياسية ٥٦، مكاتيب الرسول للأحمد، ص١٤، ط ١٩٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى
المنذر بن ساوى سلام عليك فاني احمد الله
اليك الذي لا اله غيره واشهد ان لا اله الا
الله وان محمدا عبده ورسوله اما بعد فاني اذكر
ك الله عز وجل فانه من ينصح فانما ينصح لنفسه ويطع ر
سلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ومن نصح لهم فقد نصح لي
وان رسلي قد أثنو عليك خير الله واني قد شفعتك في
قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل
الذنوب فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن
أقام على يهوديته او مجوسيته فعليك الجزية

(الختم) محمد رسول الله

المراجـــــع:

١- الوجيز في تاريخ الخط. لعبدالله أبو راشد.

٢- المدرسة البغدادية في ا لخد العربي لمحمود الجبوري.